

د. عزي عبد الرحمان
مدير مكلف بما بعد التدرج والبحث
بم.ع.ا.ا.

● اقترن المنهج تاريخيا بظاهرة البحث عن الحقيقة او ما يعتبر انه الحقيقة. فالمنهج «كمجموعة من العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم (من العلوم) بلوغ الحقائق المتوخاة، مع امكانية تبيانها والتأكد من صحتها» (1) طرح «كمسألة...» اساسية في جميع العلوم المعروفة لدى الحضارات» (2) وقد افرز تاريخ الفكر الغربي مناهج عدة تنوعت واختلفت وفقا للمنطلقات النظرية (3) التي تتبناها او تركز عليها. والمقام هنا لا يسمح ولو بمعاينة جزئية لمثل هذه المناهج، انما يمكن القول ان البعد الحضاري والاجتماعي كان تاريخيا ملازما بالضرورة للمنهج حتى عندما يعرض هذا الاخير بأنه «المنهج العلمي». ويتضح ان تناول المنهج لم يكن قاصرا على الغرب بل مثل إشكالا حضاريا لدى مجتمعات عدة. وتعاملت الحضارة العربية الاسلامية، خاصة عندما تجسدت معالمها في الفترة العباسية، مع مسألة المنهج ودعامة ذلك ما يقترن، على سبيل المثال لا الحصر، بأعمال ابن سينا، ابن رشد، والفارابي وكذا ما اصبح يعرف تقليديا بالمنهج العلمي والتاريخي عند ابن خلدون (4). وقد برزت حديثا في الادبيات العربية نزعات تنادي بأقامة علوم اجتماعية (5) متميزة حضاريا، الشيء الذي يرتبط ايضا بمراجعة الادوات المنهجية في دراسة واقع ومؤسسات المجتمع العربي.

(1) - د. فردريك معترف، منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985، عن مادلين غرافتيز، ص. 5.

(2) - د. م. ص. 5.

(3) - عن اربع مدارس فكرية في الغرب، انظر: AZZI Abdrrahmane, *Structuralism and Sociological Theory*, Unpublished Dissertation, NTSU, TX, 1985.

(4) - عن الفكر الخلدوني، انظر:

ابن عمار الصغير، التفكير عن ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، طبعة 1984. وعن منهجية ابن خلدون، انظر: Ali Oumlil *l'Histoire et son Discours, Essai sur la Méthodologie d'Ibn Khaldoun*, S.M.E.R., Rabat 1982.

(5) - مجموعة من المؤلفين: نحو علم اجتماع عربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان 1985.

ووردت في هذا الشأن تساؤلات حول صلاحية «المنهج الغربي» وهل يمكن دراسة مجتمع ما مثل المجتمع العربي بوسائل غربية؟ واصبحت تعابير مثل «المنهج الاخر» و«ازمة منهج» «المنهج المتميز» و«المنهج الاسلامي» تجسد العديد من الكتابات العربية التي تشتق نموذجا من التراكبات التراثية والحضارية للمجتمع العربي ويبرز هذا المهجس المركزي في علوم عدة خاصة التاريخ (6)، والفلسفة وعلم الاجتماع.

ويتضح فيما يتعلق بالاتصال ان الدراسات في هذا الحقل انبثقت وتطورت في الغرب ايضا. وقد انتجت هذه الدراسات رصيذا بالغ الاهمية من النظريات (7) والاساليب المنهجية تراوحت ما بين تقديرات جزئية تعالج ظاهرة متميزة الى اطروحات ذات طبيعة كلية تضع الاتصال في اطار النظام الاجتماعي. وقد دخل هذا الحقل الى بعض القطاعات الاكاديمية في الدول العربية بصفة طارئة غير مدروسة املته تطورات تكنولوجية واخرى ترتبط بالصرعات مع القوى الخارجية. وهكذا لم يتمكن هذا الحقل من تسجيل الانطلاقة التي تسمح بنشأة علم اتصال يتماشى مع واقع مؤسسات الاتصال الجمعي في المجتمع العربي، ولا يوجد الا عدد متناثر من المعاهد المتخصصة في هذا المجال وهذه تشكو ضالة التأطير والامكانيات كما لا يبدو ان هناك اكثر من مجلة قارة في حقل الاتصال على مستوى الوطني العربي. هذه الوضعية اوجدت نوع من الفراغ او الخلط في التنظير والبحث ولو ان هناك محاولات (8) تستحق التشجيع لصياغة نظرية متميزة عن مساهمة الحضارة العربية الاسلامية في حقل الاتصال ووسائل الاتصال الجمعي.

هذه التقديرات تتعرض لمسألة المنهج وتقترح مراجعة الاساليب المنهجية التي خصت الاتصال بنظرة نقدية عند دراسة الاتصال ووسائل الاتصال الجمعي في المجتمعات العربية. ويشير هذا النص «محاور وابعاد» ترتبط بامكانية اقامة نموذج منهجي متميز يحقق نوع من الاستقلال الثقافي عن الغرب ويتوجه نحو التعامل والتفاعل مع المشاكل الثقافية والاجتماعية المطروحة على الساحة العربية وعلى البلدان النامية عامة.

نبذة تاريخية

تبلورت بعض المرتكزات المقترنة بدراسة وسائل الاتصال الجمعي في اوائل هذا القرن في الغرب وكانت بداية دراسات هذه الوسائل «تمارين جزئية» اعتمدت على البنيات التقليدية للتاريخ والحقوق، الخ... (9) وقد احتلت وسائل الاتصال مكانة خاصة بتزايد التوزيع

(6) - انظر بعض المحاضرات التي قدمت في ندوة «المدارس الغربية والتاريخ الجزائري»، جامعة الجزائر، ربيع 1987.

(7) - انظر كتابات «لاسويل»، «ليبمان»، «لازرسفيلد»، و«برلسون».

(8) - 3. محمد سيد محمد، المسؤوليات الاعلامية في الاسلام، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.

(9) - Kaarle, Norderstrong, «Recent developments in European Communications Theory» in H.D Fischer and J. Merrill International Intercultural Communication, Hastings House Publishers, N.Y. 1978, P.457.

«الجهاهيري» للصحافة وبروز الاذاعة في العشرينات . وقد اتسعت وتعددت رقعة هذه الدراسات وظهر علم الجريدة (Zeitungswissenschaft) بألمانيا وبحوث الاذاعة (Radio research) بالولايات المتحدة . وارتأت هذه الدراسات لاحقا ان تتعامل مع ظاهرة الاتصال عامة وكذا دلالتها النظرية والاجتماعية فنشأ علم وسائل الاتصال العامة (publizistik) فيما بين الحريين 1 و2 بأطاليا وبرزت بحوث الاتصال (communication research) في اواخر الاربعينات بالولايات المتحدة (10) . هنا يمكن ملاحظة ان «لازر سفيلد» غير عنوان سلسلة بحوثه من «بحوث الاذاعة» الى «بحوث الاتصال» .

وقد افرز المجال الثري من الدراسات الامبريقية خاصة في الولايات المتحدة انماطاً من البحث في حقل الاتصال اصبحت تدعى اكاديميا «نمط لا سويل» ومجازيا «بالنمط الامريكي» . (11) هذه تتمحور في : تحليل المضمون ، دراسة الجمهور ، ودراسة التأثير والتي تتجسد جزئيا في مقولة «من قال هذا لمن وبأي تأثير» . والنص هنا لا يسع لمحاورة ما تكنه هذه الانماط انما يمكن اعتبار ان كل من تحليل المضمون ودراسة الجمهور ودراسة التأثير ورد استجابة لدواعي اجتماعية حضارية مرتبطة بالفترة ما بين 1920 و 1944 بالمجتمع الغربي . ويمكن تبيان عدد من العوامل التي ساهمت في بلورة مثل هذه الاشكال من البحث فيما يأتي :

1 - التعامل مع ظاهرة الدعاية : احتلت الدعاية في الفترة ما بعد الحرب الاولى مكانة خاصة ضمن العلاقات التي كانت تتحكم في المجتمعات الغربية . وهكذا نمت الحاجة الى دراسة تواجد الدعاية ضمن الرسالة الاعلامية فانبت ما سمي بتحليل المضمون او تحليل المحتوى .

يمكن في هذا الاطار ذكر دراسة «لاسويل» عن دعاية الحلفاء والدراسات الخاصة عن «تسرب» الدعاية النازية في الصحافة الامريكية وكذا تأسيس معهد الدراسات الدعائية (Institute of Propaganda Analysis) بأمريكا .

2 - النداءات الخاصة بالتداخل القائم بين القيم الثقافية الاخلاقية ووسائل الاتصال :

نشأت هناك اصوات من عدة اركان تلح وتنذر بأن وسائل الاتصال الجمعي تساهم بشكل او اخر في خلخلة العوائد التراثية والبنيات الاخلاقية في المجتمع . وقد ادى هذا الواقع الى ضرورة التأكيد من صدق وثبات هذه الافتراضية . فبرزت الحاجة الى دراسة التأثير محاولة في اتجاه تقديم ايضاحات ذات مصدقية عن الجدل القائم حول مدى تأثير هذه الوسائل على مواقف وسلوك افراد المجتمع . يمكن بهذا الصدد ذكر دراسة «بين فاند» (Payne Fund) التي بدأت في أواخر الاربعينات والدراسات التي تلت عن تأثير الافلام على الاطفال من حيث تعديل او توجيه او تحويل او تغيير القيم وطرائق التعامل مع الآخرين وكذا نشأة معهد برانستون للبحوث الاذاعية (Princeton Office of Radio Research) ومعهد للاذاعة التربوية (Institute for Educational Radio) بأمريكا .

(10) - Ibid, p.457

(11) - Ibid, p.458

3 - العامل التجاري : كان على القائمين بالاشهار معرفة جمهور وسائل الاتصال . فعندما كانت الجرائد المصدر الاساسي للاشهار لم تكن هناك حاجة ماسة للبحث عن من يشترك ويطلع فيبانات التوزيع كافية الى حد كادلة عن ضخامة او ضآلة الجمهور . بيد انه دخول الاذاعة الى الميدان ادى الى التنافس على جمهور لم يكن واضحا للعيان فكانت الحاجة الى دراسة جمهور الاذاعة . (12) .

يمكن التنوية اذا بأن كل محور من محاور بحوث الاتصال كان مقترنا بميدان معين من ميادين الضرورة الاجتماعية والحضارية . وهكذا دعت الحاجة في الميدان السياسي الى تحليل المضمون ، وبرزت الضرورة في الميدان الثقافي الى دراسة التأثيرات ، وأدت الظروف المستحدثة في الميدان التجاري الى دراسة الجمهور .

وقد بدأ حقل الاتصال في الفترة ما بعد الحرب الثانية يتأصل كعلم قائم بذاته بأمريكا ، لكن وفي نفس الوقت تقلصت دراسات تحليل المضمون والتأثير والجمهور الى حد الجمود وسمى لازر سلفيد هذه المرحلة بفترة «التقوية والتميز» بالنسبة لتطور وسائل الاتصال الجمعي بأمريكا . (13) ويبدو ان هذه التباطؤ كان قائما على عدد من المستجدات بالاضافة الى تباعد الدواعي التي ادت الى نشأة هذه الاشكال من البحث في الفترة ما بين الحربين . فقد اخذ تحليل المضمون شكلا اضافيا بعد ان بدات الدعاية وتقنيات الرسالة الدعائية تحتل مكانة معتبرة في الدراسات الاجتماعية الاخرى . ايضا لم تعد دراسة التأثير تتلاءم مع اولويات المؤسسات الصناعية المتمسكة في زمان الاتصال الجمعي رغم ان الاصوات المنادية بمراجعة ما يرسل وينشر وبيث ظلت قائمة الى حين . ودراسة الجمهور آلت الى نوع من الهامشية اذ ان التأثير التجاري للتلفزيون لم يكن مؤكدا كما هو الحال بالنسبة للاذاعة .

وقد نمت الفترة نفسها اهتمامات جانبية من بينها محاولة «لاسويل» تجاوز الاطر التقليدية التي كانت تتم فيها دراسة الجمهور . ويتسجد هذا في الدراسة التي اصبحت مرجعا كلاسيكيا عن وسائل الاتصال الجمعي والتأثير الشخصي ، 1955 . (14) . وبدأ تحليل المضمون يعتمد على بعض المجالات الاخرى كدراسة الاخبار والخطب الدينية والاشهار ودراسة مقارنة بين الرسائل الاعلامية عبر الثقافات . وتدخل في هذا الاطار ايضا الكتابات الخاصة بالصحافة الساخنة والباردة وتراجع الرسالة امام سطو الوسيلة في المجتمع التقني الصناعي ، ما كلوهان 1960 (15) .

(12) - Paul, F. Lazarsfeld The Prognosis for International Communication Research», in H.D. Fischer and J.Merrill, **International Intercultural Communication**, Hastings House Publishers, N.Y.pp.485/490.

(13) - Ibid, p.487.

(14) - E. Katz and P. Lazarsfeld, **Personal Influence : The Part Played by People in the Flow of Mass Communication**, The Free Press N.Y 1964.

(15) - Marshall. McLuhan, **Understanding media**, Mc Graw-Hill, N.Y. 1964.

وكانت مرحلة ما بعد الحرب الثانية مرحلة تقليد «نمط لاسويل» في أوروبا (16) رغم ان الدراسات في الميدان الاوروبي لم تصل الى مستوى الرواج الذي ساد في امريكا. ويقول كارل نرد نسترنيج في هذا الشأن ان «الميدان الاوروبي ليس مصدرا ثريا لتمرير الثقافة اذ لا يوجد عادة الا مصدرا او مصدرين للدراسات الاعلامية في البلد الواحد» (17). واستمر ميدان الاتصال في أوروبا يعاني من ازمة الهوية لمدة زمنية معتبرة. وقد سادت في هذه الفترة وفي الفترة التي تلتها الدراسات الامبريقية في أوروبا وامريكا ايضا غير ان عدد عن الدراسات الكيفية خاصة في الستينات اوجدت ما يمكن تسميته بالمنظار الاوروبي في حقل الاتصال. هذا المنظار حاول ان يتعامل مع «نمط لاسويل» انطلاقا من خلفيات نظرية وفلسفة اخرى.

يمكن في هذا الشأن التطرق بلمحة عابرة الى بعض هذه المدارس التي عيّنت لمكانة وسائل الاتصال الجمعي تجاه القضايا الثقافية والاخرى المطروحة على المجتمع.

المدرسة البنيوية خاصة في فرنسا وإيطاليا : ان الامام ببعض جوانب هذه المدرسة يتطلب دراسة جادة متأنية لأعمال «سوسير» في اللسانيات، ولفي ستروس في الطقوس البائدة والحديثة، «وفوكو» في التاريخ والقطيعة الابستمولوجية، و«بارث» في النقد الادبي وكذا لا كان في تحليل الخطاب العيادي (18). ويبدو ان المحاولات التي استندت الى هذه المدرسة في دراسة وسائل الاتصال خاصة ما زالت اولية باستثناء سميولوجية الصورة وكذا ميادين متنوعة اخرى مثل البلاغة والازياء والسرد الروائي الخ.

دراسات الثقافة المعاصرة خاصة في انجلترا : عيّنت هذه الكتابات بالوضعية الجانبية غير المستقرة لاشكال ومحتويات ثقافة مجتمع ما بعد التصنيع وارتباط هذه الفترة التاريخية بتساؤل سلطة المؤسسات الاجتماعية وانبعث مظاهر الاغتراب؛ الخ (انظر على سبيل المثال كتابات «دهرندورف».)

المدرسة النقدية الماركسية اساس في ألمانيا : خصت اطروحات هذه المدرسة انماط وأوجه البنيات الفوقية بما في ذلك وسائل الاتصال الجمعي في المجتمع المعاصر. ويجد الدارس ان مؤلفات «هوركهبايمر»، «ادورنو»، «فروم»، «ولوانثال» غنية بالجدل والنقاش عن ازمة الثقافة في المجتمع الرأسمالي الاحتكاري. وقد شكلت ظاهرة الاتصال «Communication» مادة اساسية في اعمال «هابرماس» الذي يرى من بين اشياء اخرى ان وسائل الاتصال الجمعي ساهمت بشكل حاسم في تفكيك لغة الاتصال وتركيز قواعد لغة تنبني على المنطق الاستعمالي «Instrumental reason» (19).

هذه الانماط من القوالب الفكرية نمت الى حد خارج وبالرغم من المؤسسات الاكاديمية المختصة في الاعلام والاتصال. هذا يفسر الى حد التباطؤ النسبي الذي يبديه الدارسون

(16) - Kaarle, p.458

(17) - Ibid, p.457

(18) - د. عزى عبد الرحمن «البنيوية : الافتراضات العنصرية والتفسير الاجتماعي والتركيبات التراثية العربية» دراسة لم تنشر.

(19) - J. Habermas, **Communication and the Evolution of Society**, Beacon Press, Boston 1978.

والباحثون في حقل الاعلام تجاه امكانية الاستعانة بها اورده هذه المدارس في دراسة وسائل الاتصال الجمعي . وحقا فان ما طرحته مدارس المنظار الاوروبي لم يجد بعد اثرا بارزا في الدراسات الاعلامية رغم تعدد المحاولات التي اشتقت نموذجها النظري والمنهجي من هذه المدارس خاصة في بداية السبعينات . واضحا ان هناك ترابط من نوع التبعية وفروع المعرفة الاخرى والعديد ممن أسهموا في بلورة وإرساء معالم الاعلام فبين علم الاعلام والاتصال توافدوا من مشارب عدة كعلم الاجتماع وعلم النفس والقانون والادب ، الخ . واضحا ايضا ان حقل الاعلام والاتصال عانى نتيجة عوامل ذاتية وموضوعية نوعا من الفقر النظري وركاكة في بعض طرائق وادوات البحث ولم يحقق وزنه بجدارة ضمن العلوم الاجتماعية الاخرى الى حين .

ويلاحظ ان عدد من الدراسات الحديثة في أوروبا (20) تتميز بالثقل الفكري والطرح الكلي الذي لا تتواجد عادة في الدراسات الامبريقية التي سادت وما تزال تسود الكتابات الاعلامية في اوروبا وامريكا . يمكن في هذا السياق سرد ما اصبح يعرف في بداية السبعينات في اوروبا بكل من :

المشروع الخاص بدراسة الفجوات الاعلامية في المجتمع : (21) يقدم هذا المشروع اشكالية مفادها ان هناك تفاوت بين الفئات الاجتماعية من حيث المقدرة على الاكتساب والتحكم في المعلومات (Information) التي تمكن الفرد من رؤية وفهم المجتمع الذي يعيش فيه ، والتي تسمح له بالتأثير على ظروف حياته اليومية (22) . هذا التفاوت يقع خارج نطاق «مراقبة» وسائل الاتصال الجمعي وممره اساسا عوامل خارجية كبنية المجتمع ، والمكانة الاجتماعية والاقتصادية للفئات والافراد ، والامكانيات الثقافية والاخرى للافراد ، الخ . وهذا بالرغم من وسائل الاتصال الجمعي تساهم بدون شك في توسيع او تضيق الفجوة الاعلامية المتواجدة في المجتمع .

المشروع الخاص بمعالجة ظاهرة الاحتياجات الذاتية والموضوعية للاعلام في المجتمع (23) : يفترض هذا المشروع ان الاحتياجات للاعلام تتمايز بصفة عكسية وفقا للامتيازات الاجتماعية والاقتصادية لمختلف فئات المجتمع . وهكذا فإن الفئات الاقل امتيازاً والتي موضوعياً تتطلب احتياجات الى اعلام لا تتوفر ذاتياً على مثل هذا الاعلام . ويقع في الجانب الاخر واقع ان الفئات الاكثر امتيازاً والتي موضوعياً في غنى الى حد كبير عن هذه الاحتياجات تمتلك ذاتياً هذه المعلومات وتبدو «وانها اكثر جوعاً من الاخرين» (24) . وقد أظهرت عدد من الدراسات التي اجريت في اطار هذا المشروع ان الفئات الاقل امتيازاً لا تعتبر الاعلام والمعرفة شيء ذو اهمية معتبرة . ويستتبع هذا ان هذه الفئات كانت اقل اطلاعا وغير قادرة على تحديد المعرفة المناسبة واين يمكن ايجادها . واوردت هذه البحوث ايضا ان الفئات الاكثر امتيازاً كانت اكثر اطلاعا واكثر تمكناً من المعارف الجديدة وقادرة على تبيان المعرفة التي تراها مناسبة وبدت هذه الفئات وكأنها في سباق نحو الاستحواذ على الاعلام في المجتمع . هذه الوقائع الميدانية اوجدت

20.- Kaarle, pp. 457-464.

21.- طرح المشروع أساساً في السويد

22.- Kaarle, p. 456.

23.- طرح المشروع أساساً في فيلندا

24.- Kaarle, p. 460.

حقلا واسعا لطرح من جديد لعدد من المفاهيم التي ظلت جانبية في حقل الاعلام كمفاهيم الثقافة السائدة، والوعي الزائف، والاغتراب وما شابه ذلك.

ويمكن التنوية في اطار هذا السرد الى ان عامل الزمن قد لا يدع المجال انيا للتطرق الى ما جد في اواخر السبعينات وبداية الثمانينات الا انه يلاحظ تألق بعض ميادين التخصص كالعلاقات العامة (Public Relation) التي تحتل جانبا اساسيا في بلورة وفي الحفاظ على سمعة المؤسسات الاقتصادية خاصة، والاشهار، وكذا التكنولوجيا الحديثة لوسائل الاتصال الجمعي. ويضاف الى هذا سيادة الطرائق الامبريقية والادوات الاحصائية المتطورة (والتي اصبحت تستوظف الاعلام الالي) في البحوث الاعلامية وهذا بدرجات متفاوتة في كل من امريكا وأوروبا.

«نمط لاسويل» خارج العالم الغربي

يبدو ان «نمط لاسويل» هذا (تحليل المضمون، دراسة التأثير، دراسة الجمهور) بدأ في بداية السبعينات يجد أرضية (نسبية) في عدد من البلدان النامية (الهند ومصر) ولو انه لا توجد هناك دراسات متوفرة عن مدى استخدام هذا النمط وعمّا اذا كان الاستخدام تقليدا عشوائيا او محاولة عملية تتركز على واقع وسائل الاتصال الجمعي في المجتمع. ويمكن ان يستند هذا الاهتمام بالنمط الى عوامل عدة من بينها طبيعة علم الاعلام والاتصال والتي تتطلب بالضرورة التعامل مع الرسالة ومحتواها والتأثير والجماعات المتلقية للرسالة وكذلك او من باب الافتراض، عملية النقل والترجمة في البلاد التي كان لها الاحتكاك المباشر بالثقافة الانجلوساكسونية. وايا كان فأن مراجعة للمذكرات (25) التي انجزت في الفترة ما بين 1978 و 1986 بمعهد علوم الاعلام والاتصال بالجزائر تبين ان النمط البحث السائد في هذه الكتابات هو تحليل المضمون ويتواجد الى جانب هذا التحليل، وبدرجات متفاوتة، دراسات نظرية عامة، دراسات الجمهور دراسات هيكلية، ودراسات تبني الاسلوب التاريخي (انظر المنحنى).

منحنى لأساليب البحث الخاصة بالكتابات الاعلامية بم.ع. 1.1.

ملاحظة : ترجمت الاعداد الى نسب واستثنيت في المنحنى نسب اساليب البحث المتفرقة الاخرى.

■ يلاحظ ان تحليل المضمون بدأ منذ 1979 يأخذ الاسبقية وظل الى 1986 يمثل اكثر من 40% من أساليب البحث في هذه الكتابات. وشهدت الدراسات العامة ابتداء من 1979 تقلصا ملحوظا ومتسقا نسبيا بين 1979 و 1984 ثم سجلت هذه الدراسات عودة متواضعة اثناء سنتي 1985 و 1986. وظهرت دراسات الجمهور جليا ابتداء من سنة 1982 واكتسبت ارضية معتبرة بصفة بطيئة لكنها اكيدة. وظلت الدراسات الهيكلية اعتباطية تظهر وتختفي بين سنة واخرى ولا يبدو انها قارة بحيث يمكن تتبع مدى تطورها. ويمكن اخيرا اعتبارا الدراسات التي تعتمد الاسلوب التاريخي ضيئلة نسبيا ولا تمثل الا جانبا فرعيا من اساليب هذه الكتابات خاصة اثناء سنتي 1985 و 1986.

(25) - كل المذكرات التي انجزت باللغة العربية.

مراجعة «نمط لاسويل»

يتبين اذا ان اساليب البحث في حقل الاعلام وردت ضمن اطار تاريخي (الزمان) حضاري (المكان) متميز. هذه الاساليب قدمت طرحا عقلانيا علميا الا انها تعاملت مع ظواهر ثقافية نابع من المجتمع الذي نشأت فيه، الشيء الذي اعطي لمثل هذه الاساليب طابعا (خاصا) تولد مر خلال العلاقة الجدلية بين الاسلوب والمسألة الثقافية المعالجة. ويمكن التذكير في هذا الشأن ا وسائل الاتصال الجمعي ليست ثقافة في حد ذاتها انما هي قنوات تتجسد من خلالها وبفضل ثقافة المجتمع في ان التعامل مع هذه القنوات يتضمن بالضرورة التفاعل مع ثقافة المجتمع.

وتطرح عملية استخدام او «نقل» اساليب البحث التي سميت «بنمط لاسويل» خارج المجتمع الغربي تساؤلات جذرية عدة. هل تتعدى هذه الاساليب في مجملها او في جزء منها اطار المجتمع الذي تولدت فيه؟ هل هناك دواعي خاصة بوسائل الاتصال الجمعي في البلدان العربية والنامية تتطلب ادخال هذه الاساليب؟ الا يمكن التعامل مع هذه الاساليب نقديا اعتيادا على واقع الاتصال الجمعي في هذه البلدان؟ هل يمكن صياغة اساليب بحث متنوعة او تختلف عن التي نشأت في العالم الغربي؟ هل يمكن التوفيق بين ما قدمته الحضارة الاسلامية العربية وما قدمه الغرب في شأن منهج البحث العلمي؟ الخ... الاجابة على مثل هذه التساؤلات تتطلب تدخل ومساهمة احسن ما لدينا من كتاب ونقاد ودارسين وباحثين غير انه يمكن تقديم معالجة شبه نقدية لكل من تحليل المضمون، دراسة الجمهور ودراسة التأثير اخذا ببعن الاعتبار ما كتب في هذا الشأن، ما انجزته بعض الكتابات التي استوظفت هذه الاساليب، وايضا ما قد يرتبط بواقع وسائل الاتصال الجمعي في المجتمع العربي (والنامي).

٦ - تحليل المضمون : عرف برلسون هذا التحليل بأنه «الدراسة المتسقة والكمية للمحتوى الظاهرة لوسائل الاتصال الجمعي». هذا التقديم يتضمن عاملين : أ - ان التقرب من محتوى وسائل الاتصال يتم بواسطة تعيين بيانات احصائية للظواهر المدروسة فيمكن بذلك تقديم استنتاجات من حيث بعض مقاييس النزعة المركزية كالنسب والقياسات الخ ، ، وقد تطورت ادوات هذا التحليل حديثا وبدا الاستغناء تدريجيا عن الاحصائيات الوصفية باستثناء النسب واصبحت الاحصائيات الاستدلالية خاصة الاقتران وتحليل المسار تميز الدراسات الاعلامية ذات الطبيعة الامبريقية، و (ب) ان مكونات الرسالة تكمن فيما يمكن ان يستنبط ظاهريا من الرسالة كنص في حد ذاته. ويمكن بناء على هذا المدخل، محاوره تحليل المضمون نقديا من خلال المحاور التالية :

أ - مسألة الكمية : يعتبر تحليل المضمون (كما يرد في الدراسات الاعلامية) اداة كمية بالدرجة الاولى فهذا الاسلوب عادة ما يتبع التقييم والتصنيف. ويتعامل هذا الاسلوب مع النص كوحدات جزئية مستقلة ويرتكز القول في ذلك على انه وحدة «أ» استعملت اكثر من «وحدة ب» او ان هذه الوحدات وردت بنسبة اكثر من الوحدات الاخرى. هذا المنظور لا يتعامل مع المعنى (meaning) او الفهم (Verstehen) (26) الا بصفة جزئية في احسن الحالات. وهذا

(26) - لقد ارتبط العلم «بالفهم» في عصر التنوير بأوروبا وظهر هذا جليا في تحليل مضمون النصوص المقدسة، غير ان التطور التكنولوجي والتقني في المجتمع أحدث ذلك الانفصال القائم بين العلم والفهم.

يفقد تحليل المضمون الدلالة النظرية المقترنة بمعالجة الظواهر المدروسة. فيمكن في حالات التوصل الى بعض المؤشرات من واقع ان وحدة ما وردت نادرا او بصفة شائعة في النص انما يبقى المعنى على الجانب ان لم يأخذ بعين الاعتبار مكانة الوحدة في كل مرة ترد فيها في النص. ايضا، لا يبدو ان هناك ما يوحي بالاعتقاد بأن الوحدة او «الرمز» الاكثر تكرار هو بالضرورة الرمز الاكثر اهمية واعتبارا. فالنص بنية وموقع العناصر العديدة المكونة لهذه البنية ذات دلالة اكثر اعتبارا من التكرار كميا. وقد ابرز «برقلن» ان «التعريف الطموح الوحيد لمعنى اي عنصر من الفاظ وسائل الاتصال الجمعي هو ذلك الذي يتواجد ضمن السياق التي يستخدم فيه» (27) ودلالة الرسالة على كل ليست في الملكيات اللسانية التي تعرضها الوسيلة انما في المعاني والعالم الذي تؤسسه هذه الرسائل. ويتأتى من هذا الطرح وفي مستوى اخر ان التعامل مع الالفاظ تتطلب دراسة خاصة بالوضع (code) الثقافي من جهة وكذا ايضا الالمام بالاطار التاريخي الحضاري لهذا البنيات اللغوية.

ب : الشكل : يتبين ان تحليل المضمون لا يطرح التمييز بين الشكل وما يكنه النص او بين ما يقال والطريقة الذي يقال بها ما يراد قوله. فالشكل الذي يركز عليه تحليل المضمون (التقليدي) ما هو الا مستوى يتم من خلاله ادراج المحتوى ضمن الوضع (Code)، وعليه فإن كل من الشكل وما هية النص مستويان من المعاني لا بد من دراستهما ضمن منظور مشترك.

جـ. المحتوى الظاهري : يتضح ان الدراسات التي تستند الى تحليل المضمون عادة ما لا تتعدى الاطار الظاهري للرسالة. وتتجلى حدوديات هذا التحليل من ان بعض فروع المعرفة كالعلوم السياسية اظهرت ان ما يقال قد يكون تغطية لمحتويات واهداف غير متواجدة في هذا الذي يقال. يندرج في هذا السياق ان تحليل المضمون لا يأخذ بعين الاعتبار المستويات المتعددة للاتصال كمستوى الوعي ومستوى اللاوعي. وقد طرح الاتصال الذي يتم عن قناة اللاوعي من جانب علوم عدة كعلم النفس واعتبر ادخال مفهوم «اللاوعي» قطيعة ابستمولوجية عما كان سائدا لدى هذا العلوم. وحديثا ادخل اللاوعي كأداة منهجية في علوم اللسانيات والانثروبولوجية والاجتماع، والتاريخ، الخ.

2 - دراسة الجمهور : ظهرت دراسات جمهور وسائل الاتصال الجمعي كما سبقت الاشارة الى ذلك نتيجة دوافع تجارية. واستوظفت هذه الدراسات في علوم اخرى كالعلوم السياسية كأداة ضرورية للعمل السياسي في المجتمعات المسماة «بالديمقراطية». وتتواجد مؤسسات عديدة كمؤسسة غالوب (Gallup) تقوم باستقصاء الجمهور تجاه مسألة ما وذلك بصفة متسقة في هذه المجتمعات.

هذا النوع من الدراسة لا يخلو بدوره من مصاعب نظرية منهجية يمكن ذكر عدد منها فيما يلي :

أ - من هو الجمهور : هل جمهور وسائل الاتصال الجمعي «غامض» متنوع ومختلف بحيث يطرح ذلك مسألة اساسية في وزن الدراسات المتعددة المتواصلة الخاصة بهذا الجمهور؟

(27) - Oliver, Burgelin «Structural Analysis and mass Communication», in Denis, Mc Quail, Sociology of Mass Communication, Penguin Books, Baltimore, Md, 1972, P.316

ب - ما رأي الجمهور : هل يمتلك الجمهور رأيا مستقلا ام ان ما يسمى بالرأي العام ما ه الا مظهر من القيم والمفاهيم التي تبث عن طريق المؤسسات الثقافية والاجتماعية والسياسية في المجتمع؟ ويمكن القول ان الرأي العام قد يرتبط بما يكتب ويرسل ويبث عبر وسائل الاتصال الجمعي ودراسة هذا الرأي في هذه الحالة يدخل ضمن باب «بضاعتنا ردت الينا»

ج - الجمهور والرسالة : يطرح الاقتران بين الجمهور والرسالة مسألة ان الجمهور يتواجد فقه من حيث علاقته بالرسالة . ويتضمن هذا عدم امكانية عزل الجمهور عن الرسالة اذ ان الجمهور ليس مجموعة من افراد متناثرة متباينة ولكن نوع من العلاقة الجدلية بين الرسالة والافراد المتعاملين مع نص الرسالة .

3 - دراسة التأثير : يلاحظ ان رغم الدراسات العديدة نسبيا في هذا المجال فان المعرفة الخاصة بتأثير وسائل الاتصال الجمعي على الجمهور محدودة ومتضاربة . ويتبين انه حتى الدراسة المتخصصة كتأثير العنف التلفزيوني على الاطفال لم تأت الا بنتائج ركيكة . وتعود وضع الدراسات هذه الى جملة من العوامل :

أ - ان طرح مسألة التأثير لم يندرج ضمن اطار نظري واسع وواضح وهكذا عانت المسألة فقه في الايديولوجية . والمسألة ، كما اشار برقلن ، لم تصاغ بكيفية يمكن الاجابة عليها . وقد اكد شر في سياق اخر ان المعادلة ينبغي ان تقدم من حيث ماذا يفعل الاطفال بالاتصال الذي يتصف بالعنف وليس العكس «من حيث ماذا يفعل هذا الاتصال بهم» .

ب - ان الرسالة تولد تأثيرات متنوعة مختلفة لدى الافراد والجماعات طبقا للمستوى المعاشي والمستوى الثقافي ، والمحيط العائلي ، والتجربة ، والسن ، والجنس ، والعامل الايكولوجي ، الخ وهكذا لا يبدو ان هناك تأثير انها تأثيرات .

ج - ان الرسالة خاصة تلك التي تبث عبر وسائل الاتصال الجمعي قد تحدث تأثيرا عكس التأثير المتوقع . وهذا يفسر لنا كيف نمى وعي الجمهور في عدد من البلدان (خاصة تلك ا عانت او ما تزال تعاني من الاستعمار) رغم سيادة وسائل الاتصال التابعة للهيئات الحاكمة .

د - ان التأثير ليست عملية انية يمكن تحديد معالمها فور التعرض لمضامين وسائل الاتصال الجمعي بل هي عملية شائكة متشابكة شأنها في ذلك شأن المؤثرات الاخرى التي يظهر اثرها سنين . وقد وقعت الكثير من الدراسات المخبرية في مثل هذا الخطأ (النظرة الانية) حين ارتأت قياس مدى تأثير بعض محتويات وسائل الاتصال كالافلام اثر العرض مباشرة في محيط اصطناعي كهذا الذي يتواجد في المخبر .

هـ - ان عزل العوامل الخارجية التي تتدخل الى جانب وسائل الاتصال في عملية التأثير عه شاقة ان لم تكن مستحيلة . والسؤال الذي يرد عادة هو ما اذا كان التأثير المزمع يعود الى وس الاتصال او الى عوامل اخرى تقترن بالمحيط الاجتماعي عامة (الاتصال الشخصي ، العائلي المدرسة ، المسجد ، الشارع ، الخ .)

التوثيق قبل التنظيم

■ يتضح ان فعالية ونجاعة اساليب البحث في دراسة وسائل الاتصال الجمعي في البلدان العربية (والنامية) تتوقف الى حد كبير على :

أ - التعامل مع هذه الاساليب نقديا .

ب - التقرب اكثر فأكثر من الخصائص الذاتية والموضوعية لواقع وسائل الاتصال بهذه البلدان . ويتضمن هذه علاقة جدلية بين الاسلوب والواقع بحيث يمكن تجاوز مأزق انعدام اساليب البحث من جهة ومعضلة توظيف ادوات جاهزة في دراسة واقع يستدعي ادوات من نوع اخر من جهة اخرى . هذا الاجراء (في رأينا) لم يبدأ بعد وقد لا يجدي نفعا استعراض العوامل التي ادت او لم تؤدي الى هذا التواجد «الخاص» .

يمكن ، أخذا بعين الاعتبار هذا الواقع ، تقديم تأملات متواضعة عن استخدام اساليب البحث هذه في تحليل وسائل الاتصال بمختلف مكوناتها واقتراح محاور يمكن ان تكون الشغل الشاغل لدى الباحثين في حقل الاعلام بالبلدان العربية (والنامية) .

● ينبغي التراجع عن الاعتماد على تحليل المضمون الكمي : هذا التحليل عادة ما يفتقد الدلالة النظرية وان ادواته ليست ثابتة وغالبا ما تكون متضاربة . ويمكن ، في حالات خاصة ، استخدام هذا التحليل اساس عندما تتطلب الاشكالية ذلك ويتم عندما تقدم المستندات الكمية كدعامة او سند لتحليل كفي اوسع واشمل .

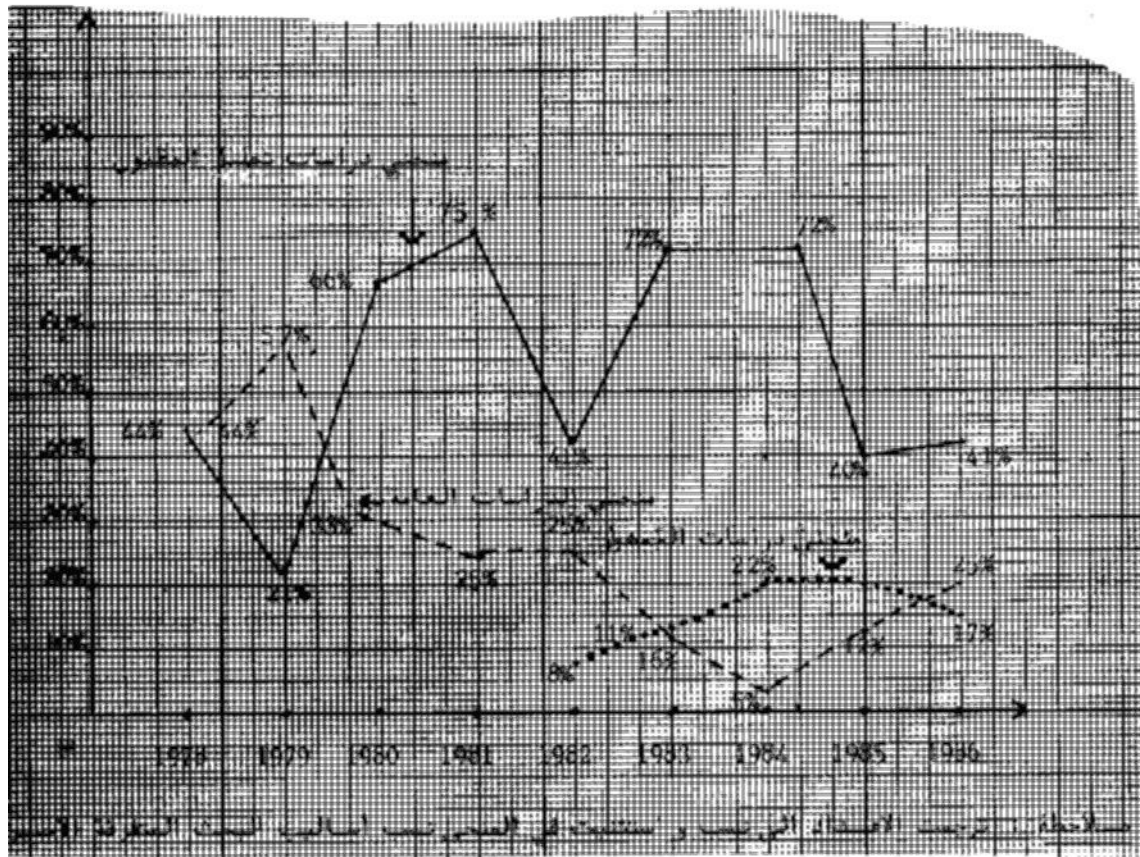
● ان دراسة الجمهور اولى من تحليل المضمون ودراسة التأثير : ان البحث عن «رأي» الاخرين خاصة عندما يكون هناك تحكما في نوعية وطبيعة المحاور الاستبائية ، عادة ما يضيف شيئا الى هيكل المعرفة الخاصة بوسائل الاتصال .

● ينبغي اعادة النظر في جوهر دراسة التأثير : هذا النوع من الدراسة عادة ما توقع الباحث في متاهات لا يمكن من خلالها عزل المؤثرات التي تتدخل (عند دراسة التأثير) اضافة الى وسائل الاتصال الجمعي .

ويبدو في رأينا ان ما احوجنا اليه في هذه «المرحلة» هو المعرفة الايجابية «المعرفة التي تمكن من جمع شمل او «توثيق» بيانات ، حقائق ، أرقام ، ووقائع عن وسائل الاتصال الجمعي في المجتمع الذي (تتواجد فيه) . هذه المرحلة ماسة وتمثل القاعدة المادية للمعالجة الفكرية او التنظير . ويضاف الى هذا ان مثل هذه المعرفة «الممكنة» قد (تعفينا) من مزالق نظرية كثيرة (توفر لنا) بعض الشروط للتطور العلمي في حقل الاعلام والاتصال .

ويدخل في هذا السياق ايضا الدراسات التاريخية التي ترمي الى تحديد او ابراز المراجع الثقافية الحضارية للمجتمع اذ انه لا يمكن عادة التجرد بالحديث بثقة عن ظاهرة ما دون الارتكاز على المميزات التاريخية (الماضي) التي تمتزج مع متطلبات المكان ومتغيرات الزمان (الحاضر) لتنسج نموذجا يحدد بعد الافاق والاتجاهات (المستقبل).

ويبدو ان هناك ضرورة للعودة الى العديد من الاصول الفكرية والحضارية التي انتجها واقرها المجتمع الذي نتواجد فيه والحضارية العربية الاسلامية عامة. وكما اشار كاتب الى «ان الالتزام الوحيد المطلوب في هذا السياق هو الالتزام بأخلاقيات البحث العلمي وفي مقدمتها الضمير الوطني. فلا عالمية للبحث ولا منهجية له، اذا خلا من الغيرة الوطنية والانتفاء الحضاري التي بدونها يفقد التريخ لونه ومذاقه ويتحول الى اكاداس من الوقائع والارقام والاسماء، تعني كل شيء ولا تعني شيئا على الاطلاق. (28).



(28) - د. محمد ولد خليفة «ملاحظات أولية حول آراء المدرسة والجامعة الجزائرية، الشعب 1987/2/26.